

المدرسة الوطنية العليا في الأمن السيبراني
ENSCS

مادة تاريخ الجزائر / History of Algeria
ENSCS 2025-2026

First year (S1)

Pr. BOUSLIMANI Abderrahmane

الدرس الثاني

الدول الإسلامية في الجزائر

المحور الأول: الدولة الرستمية
776-909.

مقدمة

- مرّت الجزائر بعدة مراحل تاريخية هامة منذ انتهاء الفتوحات الإسلامية، عرفت خلالها تأسيس وسقوط عدد من الدول الإسلامية التي تركت بصماتها في تاريخنا الوطني في المجالات السياسية والعلمية والحضارية، وتعد فترة هذه الدول من ابرز الفترات التي شهدت خلالها البلاد تطوراً حضارياً وتاريخياً هاماً.

- في أعقاب معركة بلاط الشهداء (بواتييه) في فرنسا سنة 732 وانهزام الأمويين فيها، ولّى عهد القوة الجاذبة التي استقطبت إلى فلك دمشق عددا متزايدا من الولايات سواء من الشرق أو من الغرب. ففي تلك الفترة الممتدة من عام 697 إلى 740 تعاقب 8 ولاية على القيروان، العاصمة الإقليمية التي كانت تدار منها كل الأراضي الإسلامية الواقعة إلى الغرب، من طرابلس إلى ناربون وراء جبال البيريني في البرتغال، ولم يدم حكم دمشق المباشر لهذه المنطقة الشاسعة سوى 43 عاما.

- وقد تبدو هذه الفترة قصيرة جدا، إذا قيست بفترات الاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي. غير إن نتائجها فاقت نظائرها كثيرا من حيث مغزاها ودوامها، فما سبب ذلك؟ إن أقرب سبب يكمن في أن السكان المحليين (الأمازيغ)، وإن كانوا قد رفضوا الهيمنة الأجنبية، أبدوا تأييدهم الصادق للقيم التي أتى بها الإسلام.

معركة بلاط الشهداء battle of Poitiers



عبد الرحمن الغافقي قائد معركة بلاط الشهداء



لقب شارل مارتل بالمطرقة بعد معركة بلاط الشهداء من قبل بابا إيطاليا (شترستوك)



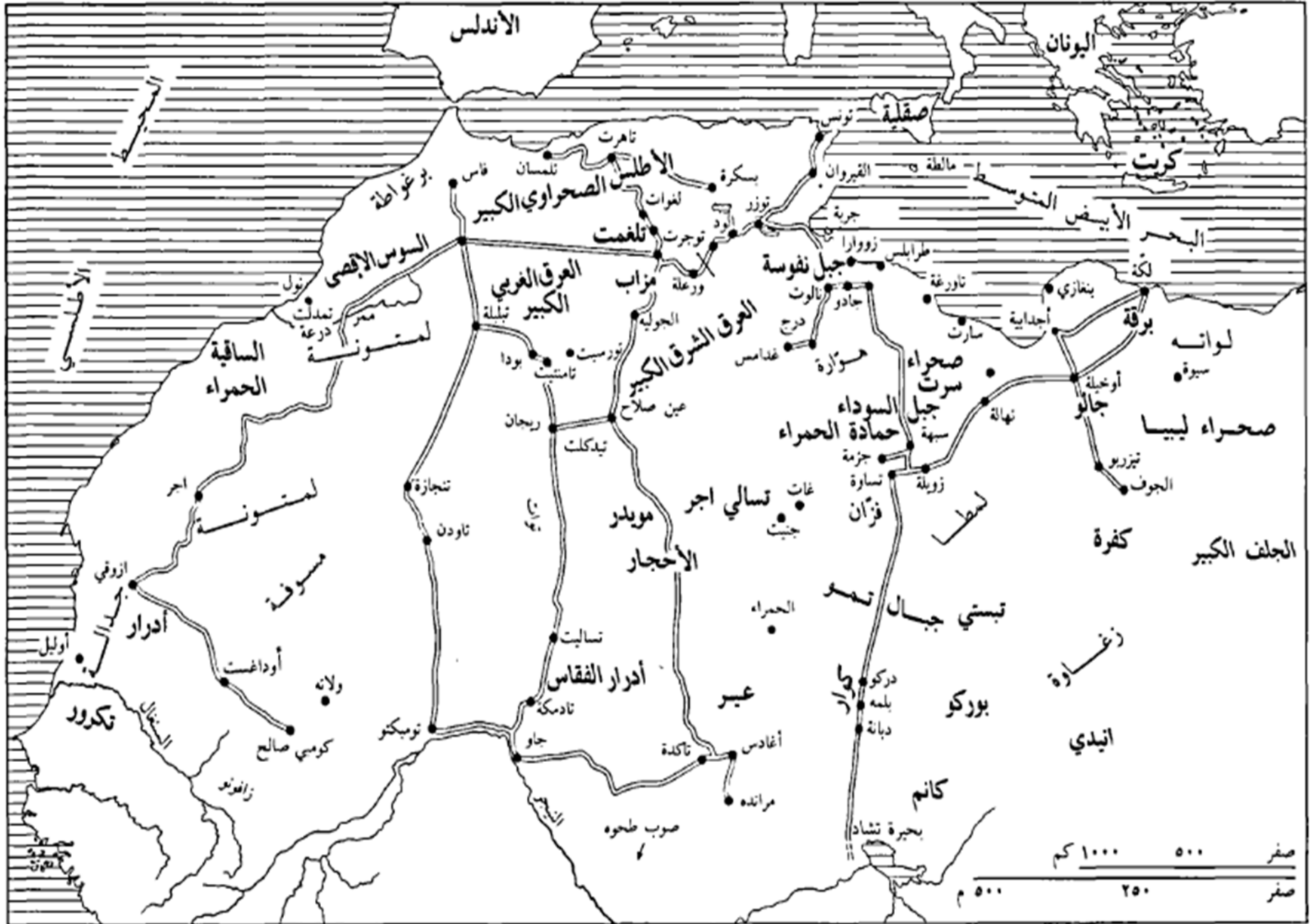
- خرجت الجزائر من الزوبعة بخريطة جيوسياسية تغيّرت كل معالمها، فلئن كانت القيروان قد صمدت للعاصفة، فإن جميع مناطق الجزائر الوسطى والغربية أفلتت نهائيا من وصاية الشرق. وترتب على ديمقراطية الخوارج، مقترنة بحرصهم المفرط على حرية تقرير المصير وبما لديهم من تعصب قبلي، نشوء دول متعددة على أنقاض السلطة المركزية العربية المنهارة. فضلا عن ذلك، فإن سرّ نجاح مذهب الخوارج يكمن خاصة في أن الأمازيغ كانوا قد ضاقوا ذرعا بالوضع إلى حد لا يطاق. فكانوا يشعرون بالكبت والإهانة والاضطهاد. ولم تجد شكاياتهم أي اهتمام في دمشق.

- فبعد أن اجتهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (717-720م) وواليه على القيروان -الذي كان مولى(مسلم غير عربي) وزاهدا في آن معاً- في نشر الإسلام وإظهار العدالة. ولكن للأسف خلافته كانت قصيرة الأمد. أوفد الى القيروان، بعد وفاته، حاكم جديد هو يزيد بن أبي مسلم الذي تدرب على القسوة في مدرسة الحجاج في العراق. ففي سبيل الإبقاء على الدخل من الجباية، الذي كان قد انخفض كثيراً بسبب اعتناق الكثيرين للإسلام، قرر يزيد، مخالفا الشريعة الإسلامية، أن الذين اعتنقوا الإسلام حديثا يجب عليهم الاستمرار في دفع الجزية. وتمادى في إهانة حراسه من الامازيغ الى حد وشم أيديهم(دلالة للتمييز)، فكان رد فعلهم أن اغتالوه سنة 721م، وكانت هذه أولى بوادر تصاعد الغضب. وحق لابن خلدون أن يرى فيها أيضا أولى بوادر فكر الخوارج في شمال افريقيا.

• وسارت الأمور منذ ذلك الوقت من سيء الى أسوأ. وبما أن المجال لا يستوعب هنا لذكر كل الأحداث، فسنقتصر على أن نورد بالكامل نصاً يتضمن موجزاً رائعاً لتطلّعات الامازيغ. وهو محاولة أخيرة لمحتوى الخطاب الذي تركه ميسرة المدغري قائد الوفد الامازيغي لهشام بن عبد الملك (724-743).

• "خرج ميسرة في بضعة عشر إنساناً حتى يقدم على هشام، فطلبوا الاذن، فصعب عليهم، فأتوا الأبرش، فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده، فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال: هم أحق به، هو أخلص لجهادنا، لأن لا نأخذ منه شيئاً، إن كان لنا فهم منه في حل، وإن لم يكن لنا لم نرده. وقالوا: إذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا وآخر جنده، فقلنا تقدموا فإنه ازدياد في الجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفييناهم. ثم إنهم عمدوا الى ماشيتنا، فجعلوا يبقرونها على السّخال يطلبون الفراء البيض لأمر المؤمنين، فيقتلون ألف شاة في جلد، فقلنا: ما أيسر هذا لأمر المؤمنين. فاحتملنا ذلك، وخلييناهم وذلك. ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب الله ولا سنته، ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم، أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا". الطبري/ جزء 6.

Algeria to 800 الجزائر نحو



- كان مجال نفوذ الإباضية في البداية قاصراً على طرابلس، فلم يكن وضعهم يدعو إلى الارتياح. ذلك أن الدفاع عن طرابلس، التي كانت تحتل موقعاً حساساً على طريق الاتصال بين الشرق والغرب، كان أمراً حيوياً للحفاظ على الصلة بين القيروان ومقر الخلافة. وكان الإباضيون أكثر اعتدالاً وأشد حذراً من غيرهم. فنظموا صفوفهم أولاً وفقاً لمذهبهم الذي يوصي بالعودة (أعمال تخريبية ترمي إلى إضعاف النظام الحاكم) والتقية (إخفاء العقيدة الحقيقية تفادياً للاضطهاد) في انتظار الوقت المناسب.

- وأحرز الزعيم الإباضي، إسماعيل بن زياد النفوسي-وهو أمازيغي- الانتصار تلو الآخر حتى استولى في النهاية على طرابلس، لكن في سنة 749 هزمه جيش الخليفة وتم إبادتهم في طرابلس. غير أن ذلك لم يجد نفعاً، ولم يقض على الإباضية نهائياً، وقد عادت إلى الظهور العنيف مرتين بعد ذلك. ففي سنة 745 انتهزت مناخ الفوضى بعد مقتل حاكم القيروان واستعادت طرابلس، وفي جويلية 785 تمكنوا من دخول القيروان وولو عليها عبد الرحمان ابن رستم الذي أسس مدينة تاهرت لاحقاً.

- وكانت الدولة الاباضية الوحيدة التي استطاعت أن تنظم شؤونها لفترة زمنية طويلة هي الدولة الرستمية في تاهرت، التي أسسها الفارسي عبد الرحمان ابن رستم الذي استطاع أن يفر من القيروان عندما اجتاحتها الخليفة العباسي ابن الأشعث. وفي عام 778، ارتقى إلى مرتبة الإمام وسرعان ما بلغ إشعاعه الشرق حيث عمد قسم من أتباع الاباضية إلى تزويده بدعم مالي وروحي كبير أسهم في تعزيز دولته الفتية.
- ولم تتعرض السلالة الحاكمة التي أسسها، على الرغم مما شابها من انقسامات خطيرة، لأية تحديات حقيقية. وكانت الدولة الرستمية تمتد من جبال الاطلس غربا حتى الصحراء الكبرى في ليبيا شرقا في أوج قوتها. وكانت منظمة تنظيما قويا، بالرغم من أن سلطة الإمام خارج مدينة تاهرت كانت سلطة روحية أكثر منها سياسية.
- ولم تغلق الدولة الرستمية-رغم من قوتها- حدودها، فعلى الرغم من الاختلافات والنزاعات على الصعيد السياسي، كان هناك رواج كبير لتنقل الناس والسلع- وما صاحب ذلك من انتقال للأفكار- في جميع الاتجاهات.

احدى واحات الميزاب التي بناها الرستميون بعد استقرارهم فيها



المحور الثاني:

1- الدولة الفاطمية 909-972م

- في نهاية القرن التاسع الميلادي، كان جزء كبير من الغرب الإسلامي (شمال إفريقيا وإسبانيا) قد خرج فعلاً عن السيطرة الفعلية للخليفة العباسي في بغداد. فكان الأمويون قد وطدوا أقدامهم في الأندلس، وكان عدد من دول الخوارج المستقلة يمتد من جبل نفوسة إلى سلجماسة. وعلى الصعيد الديني- وينبغي ألا ننسى أن المجالين السياسي والديني في الإسلام يتداخلان تداخلاً وثيقاً- كان منقسماً بين شرعية السنة في القيروان وبين طوائف مختلفة من الخوارج.

- وقد تغيّر كل ذلك بقدوم طائفة قوية ونشطة للغاية من الخوارج، وهم الشيعة الإسماعيلية، إلى شمال إفريقيا في نهاية القرن التاسع الميلادي. فمن العناصر الأساسية للعقيدة الشيعية الاعتقاد بأن إمامة الأمة الإسلامية هي حق لسلالة الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال ابنته فاطمة وزوجها علي رضي الله عنه. حيث ورث عن الرسول صلى الله عليه وسلم لا السيادة الدنيوية فحسب بل وكذلك الحق الاستثنائي في تفسير الشريعة باعتباره من الأئمة المعصومين.

- ويكتنف الغموض تاريخ هذه الطائفة وكيفية نشوء معتقداتها الخاصة التي تميزها عن باقي الشيعة. وكما يحدث غالبا في الطوائف المنشقة، انقسمت الإسماعيلية إلى عدة فروع، وكانت إحدى نقط الخلاف الرئيسية تتعلق بطبيعة الأئمة. وكان الجناح الذي انبثق منه الفاطميون، يقبل النظرية القائلة بوجود أئمة ظاهرين على رأس المجتمع الإسلامي. وقد نظم الاسماعيليون دعوة سياسية ودينية تعد من أذكى الدعايات وأكثرها فعالية، حققت نجاح كبير في شمال إفريقيا ولأسيما بين قبائل بنو كتامة الذين كانوا يسكنون منطقة القبائل الصغرى بين جيجل وقسنطينة وسطيف. وكان الفاطميون وحدهم، من بين كل فروع الشيعة الإسماعيلية، هم من استطاعوا تأسيس إمبراطورية والحفاظ عليها إذ دامت أكثر من قرنين ودنت تماما من بلوغ الهدف الشمولي لعقيدتهم.

- وأياً كانت الأسباب، فإن أغلبية بني كتامة-الذين كانوا يكونون حسب ابن خلدون كراهية شديدة للفاحين والحكام العرب- لم تلبث أن استمالتها دعوة أبي عبد الله لصالح نسل علي وفاطمة، الممثل آنذاك في شخص الامام عبيد الله المهدي. وفي بضع سنوات اتحدت مختلف عشائر بني كتامة في جيش قوي توحد صفوفه العصبية المقرونة بالولاء للإمام الفاطمي باعتباره المهدي المنتظر الذي يقدر له أن يخلص العالم من أيدي الطغاة.
- وكان في إنشاء دولة شيعية في شمال أفريقيا تكريس لانقسام العالم الإسلامي إلى ثلاث إمبراطوريات متعادلة: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في شمال أفريقيا، والإمارة الأموية في إسبانيا. وكان لا بدّ للمذهب الشيعي الإسماعيلي الجديد من أن يثير اضطرابات في منطقة تتقاسمها من قبل السنية المالكية ومذهب الخوارج الاباضية. فكل هذه الجماعات لم تقبل حكم الفاطميين الا على مضض.
- وقد استقر عبيد الله المهدي في رقادة أولاً، ثم بدأ في بناء عاصمة جديدة على الساحل الشرقي حيث انتقل اليها عام 920م وسماها المهديّة، بعد أن سحقوا اخر مقاومة للأغلبة حلفاء العباسيين.

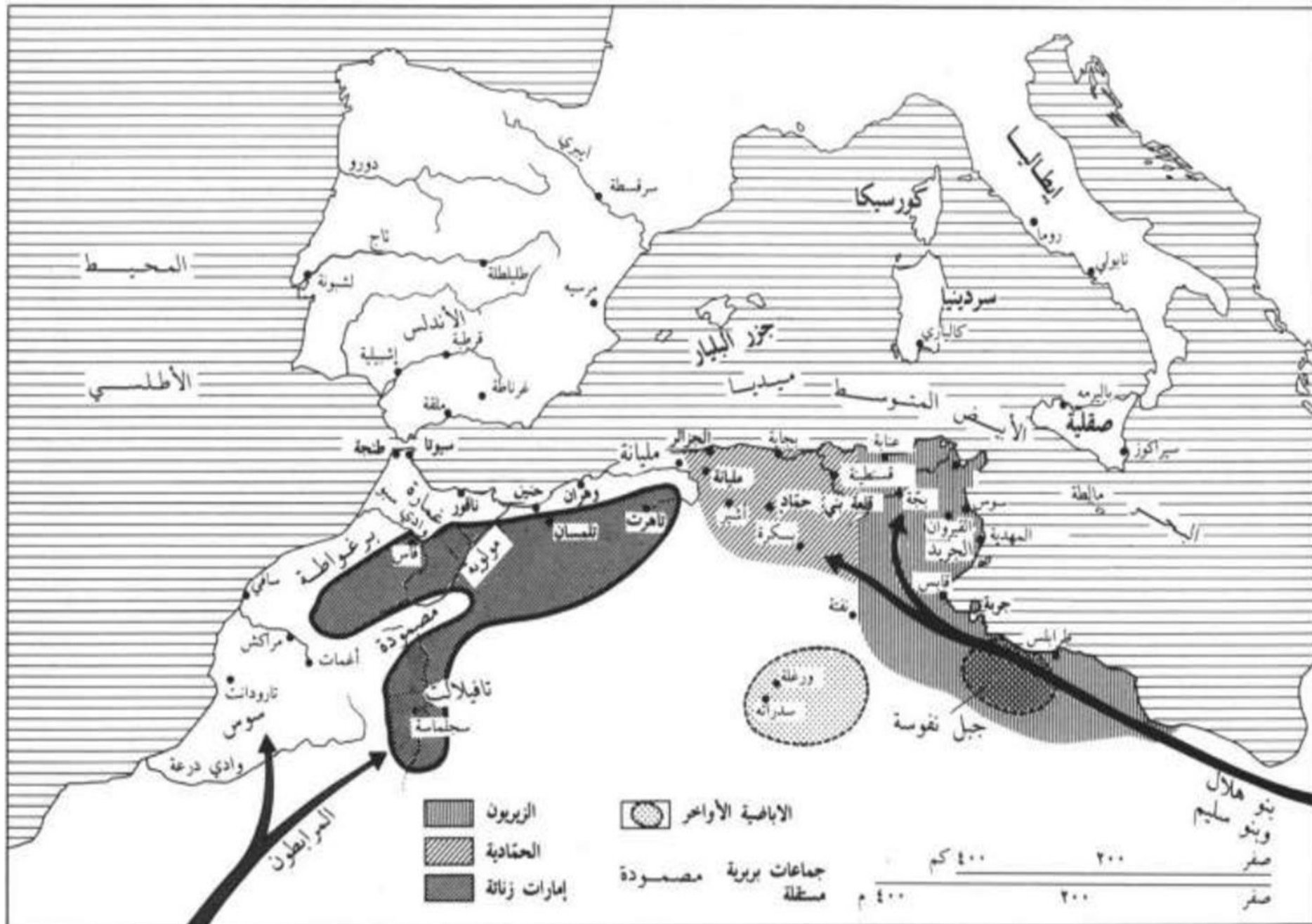
- ومنذ البداية كان الفاطميون يعتبرون شمال إفريقيا مجرد منطلق لإجراء فتوحات جديدة صوب الشرق بغية اقتلاع جذور العباسيين، وقد فرضت عليهم هذه المشروعات المسرفة في الطموح الإبقاء على قوات مسلحة قوية ومكلفة في البر والبحر على السواء وعلى الرغم من أن الداعية أبا عبد الله كسب في البداية تعاطفا هائلا بإلغاء ضرائب غير قانونية عدة، لكن هذه السياسة سرعان ما غُيّرت، وأعدت الدولة الفاطمية من جديد عددا من الضرائب غير المشروعة، المباشرة وغير المباشرة.

- وكانت مساعدة قوات بني كتامة والصقالبة (مفردها صقلبي كما سماهم العرب وهم الصرب والبلغار) هي التي أتاحت للملكة الفاطمية الصغيرة في إفريقيا أن تتحول إلى إمبراطورية تمتد من الأطلسي إلى سوريا، وإلى دولة كبرى من دول البحر الأبيض المتوسط في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي

- وعلى الرغم من أن الفاطميين يعتبرون الأسرة الحاكمة الأولى التي أقامت الوحدة السياسية لكل شمال أفريقيا، إلا أن كثير من المناطق أو المدن التي أخضعها جيوشهم اقتضى الأمر إعادة فتحها مرارا، حيث كان السكان المحليون أو الزعماء ينتهزون دائما أول فرصة للتحرر من السيطرة الأجنبية. فتاهرت، التي تم الاستيلاء عليها لأول مرة عام 908م، اقتضى الأمر إعادة فتحها 911 ثم مرة أخرى 934. وبعد الاستيلاء على تاهرت، فرّ آخر امام رستمي مع قومه الى ورغلة حيث ظل الإباضيون مستقلين، دون أن يحاولوا إقامة حكم جديد، ثم توسعوا بعدها نحو منطقة مزاب.

- وفي القرن 10م بدأ الصراع بين القوتين الإسلاميتين الكبيرين- الأمويين في اسبانيا والفاطميين في شمال إفريقيا. وبعد ذلك بفترة قصيرة، عندما تركز جل القوات الفاطمية في الهجوم على مصر، أفلتت الجزائر ومعها تونس، معلنة سقوط الخلافة الفاطمية في شمال افريقيا واستقرارها في مصر بعد بناء القاهرة عام 969 من طرف المعز لدين الله الفاطمي واتباعه الكتاميين، وفي العام التالي وضعوا حجر الأساس لجامع الازهر الشريف، واستمرت دولتهم خمسة قرون بعد وفاة مؤسسها الاصليين.

The Algeria in the first half of the eleventh century



2-الدولة الزييرية 972-1148

- خلال الفترة الأخيرة من الحكم الفاطمي قاد مناد بن زيري وابنه بلقين عدة حملات بتحالف مع الفاطميين ضد قبائل الزناتة، وقبل رحيله النهائي الى مصر عين الخليفة الفاطمي بلقين بن زيري حاكما للقطاع الغربي من الإمبراطورية، وقد فتح هذا الاجراء عهدا جديد في تاريخ الجزائر وشمال افريقيا. فحتى مجيء بني زيري، كانت جميع الاسر الحاكمة من اصل شرقي وعربي. فكان بنو زري هم أول بيت حاكم من أصل أمازيغي، وفضلا عن ذلك فإنهم دشّنوا تلك الفترة من تاريخ الجزائر التي آلت فيها السلطة في المنطقة لأسر حاكمة من الامازيغ فقط حتى الحكم العثماني (المرابطين والموحدين وبني زيان والحفصيين).

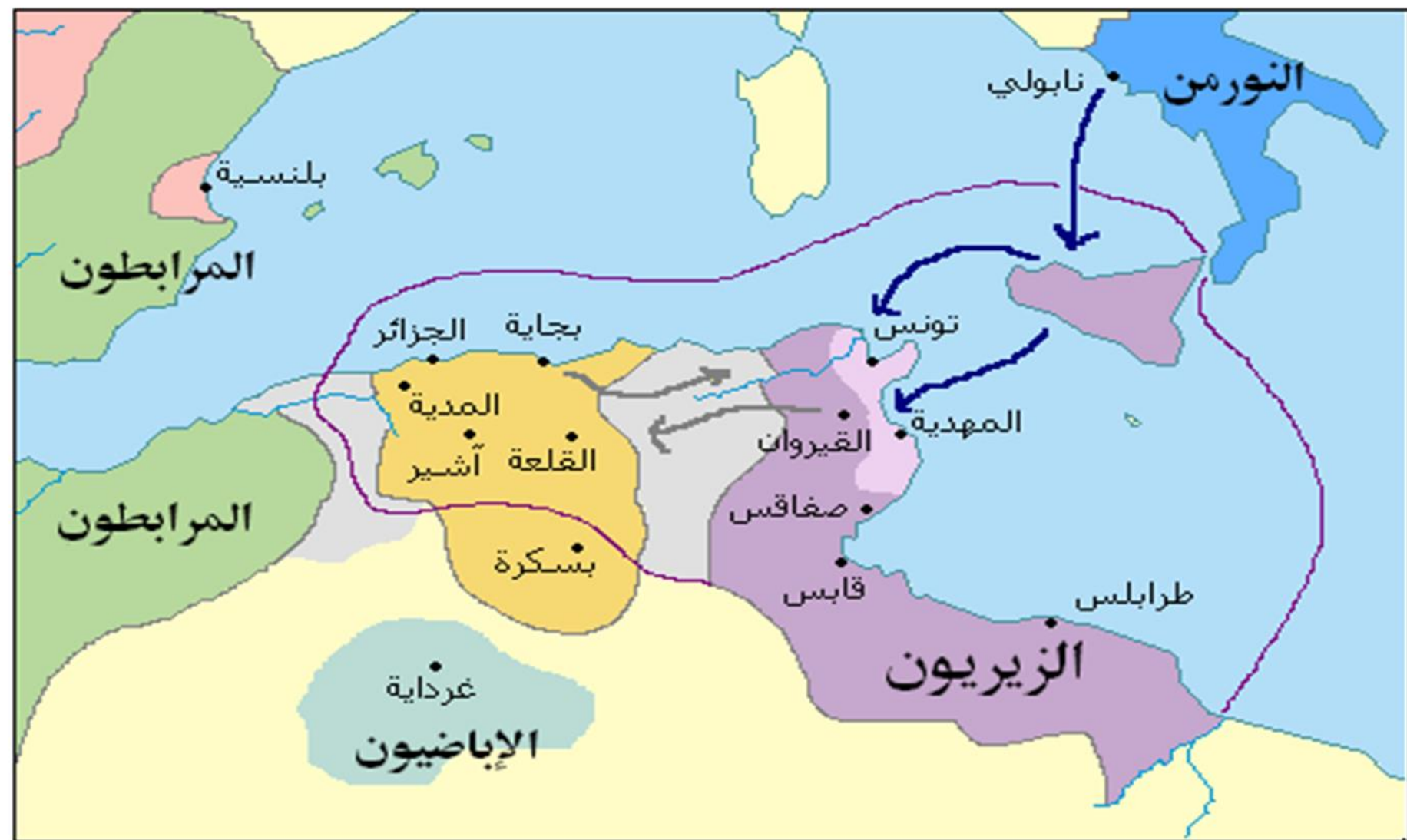
- وحتى عام 1016، ظلّت العلاقات مع الفاطميين سوية بوجه عام، فكانت الجزية تدفع للقاهرة بانتظام. وقد حاول بنو زيري في الوقت نفسه الاستقلال الحقيقي دون انكار السيادة الرسمية للفاطميين. وحاول بنو كتامة حلفاء الفاطميين اخماد أي محاولة استقلال عن القاهرة. ويبدو أن الفاطميين، باهتمامهم المتزايد بالشرق، فقدوا تدريجيا اهتمامهم بالأجزاء الغربية من الإمبراطورية. ومن الصعب أن نحدد ما إذا كان ذلك يرجع الى التدهور الاقتصادي لشمال افريقيا او الى عدم قدرة الفاطميين على التدخل عسكريا او الى كليهما. وعندما حدثت القطيعة النهائية أخيرا، في منتصف القرن 11م، لم يتخل الفاطميون مباشرة، ولكن بطريقة ملتوية أرسلوا حشودا من العرب الرُّحل ضد أتباعهم السابقين.

- وتمكن حماد بن بُلُقَيْن، بعد حملات عسكرية قوية في القطاع الأوسط بين الاوراس والونشريس، من طرد قبائل الزناتة حتى منطقة المغرب الحالي، واضطر باديس بنو زيري من أن يعترف بحماد كحاكم على هذه الأقاليم، التي أسس عليها عاصمته الخاصة، قلعة بني حماد، التي تُعدّ من أروع الآثار في شمال أفريقيا. بل إن موقعها الاستراتيجي كان أفضل موقع، حيث كانت تتحكم في طرق تجارية هامة وفي منطقة شاسعة. وبعد فترة قصيرة أعلن حماد استقلاله (عام 1010) وقطع العلاقات مع الفاطميين محولاً ولائه للعباسيين، وبهذا تم الإعلان عن تأسيس الدول الحمادية (1014-1152) والتي بلغت أوجها الثقافي والعمراني في عهد الناصر بن عباس، وتم نقل عاصمتهم فيما بعد الى بجاية التي أصبحت مركزا حضاريا وثقافيا.

- وأدى تغيير الحماديين لولائهم الى احياء نشاط أهل السنة، فقد عارض معظم السكان دائما الشيعة الإسماعيلية، وهي الديانة الرسمية للفاطميين والزيريين، ووقعت في فترة حكم الزيريين الأخيرة المذابح الأولى للشيعة في باجة وتونس، وتبعتها مذابح أوسع في القيروان وقسنطينة وسطيف. وهذه المخاطر أوضحت بجلاء لحكام القاهرة صعوبة إقامة حكومة شيعية على سكان ينتمون عامة الى اهل السنة.

وباختصار، كانت في النصف الأول من القرن 11م الخريطة السياسية للجزائر بالصورة التالية:

- 1- في الشرق كانت إمارة بني زيري (972-1014) تمثل الدولة الأكثر تقدما التي تتمتع بالاستقرار نسبيا.
- 2 - في غرب إمارة بني زيري كان بنو حماد(1079-1145) قد أقاموا دولتهم المستقلة التي كانت في حرب دائمة مع الزناتيين.
- 3- وبعد انسحاب الفاطميين وسقوط الخلافة الأموية في اسبانيا، انتهزت جماعات شتى من الزناتة الفرصة لتأسيس عدد من الدويلات المستقلة في تلمسان وفاس وأماكن أخرى.



مناطق متنازع عليها



دولة المرابطين



حدود الدولة الزيرية الأولى

الزيريون 972-1160 م



الحماديون 1014-1152 م

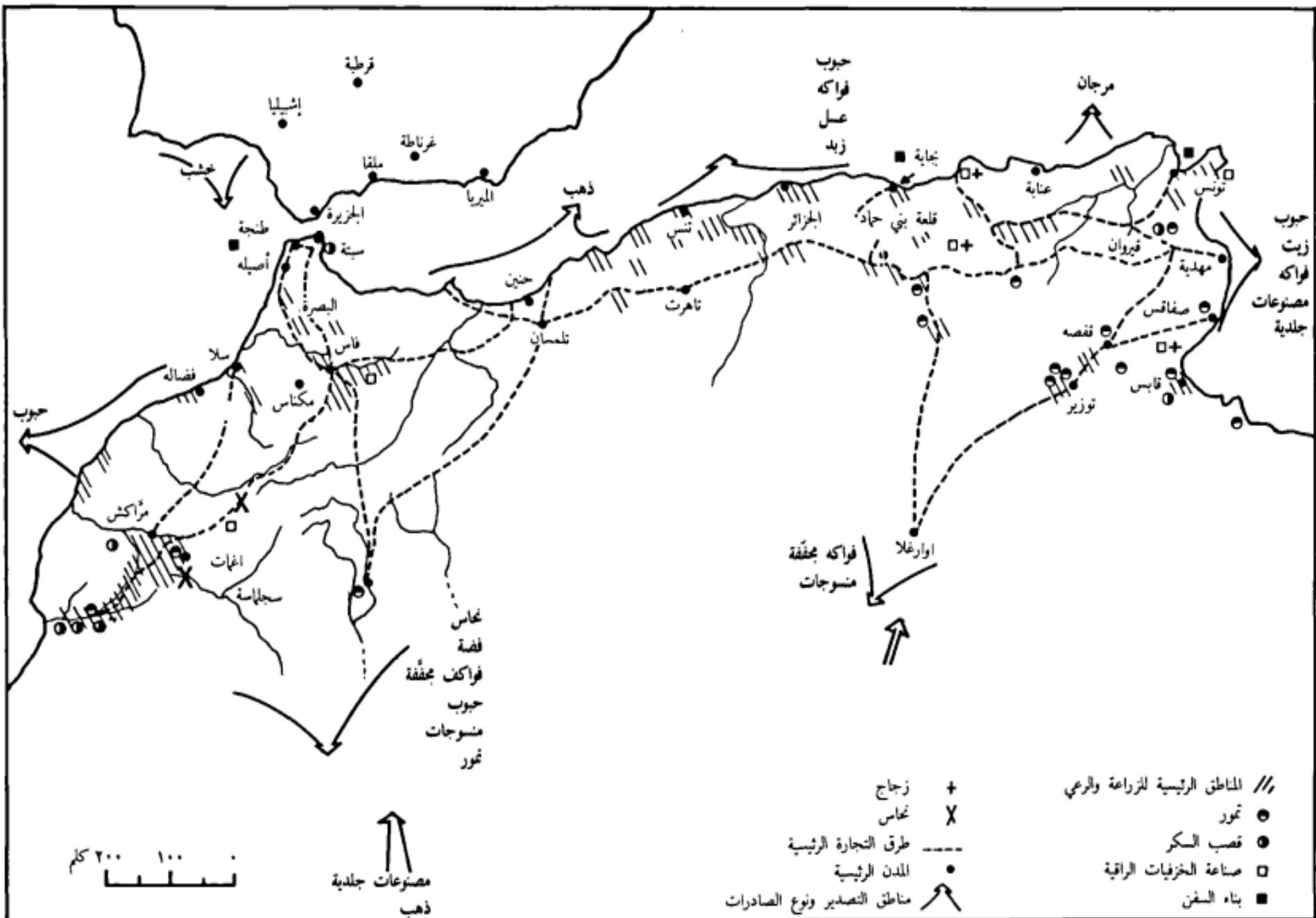


- وقد شهد الوضع الديني تغييرات عميقة في فترة ما بعد الفاطميين: ففي منتصف القرن 11م كانت الجزائر بمجملها يسودها مذهب أهل السنة ولا أثر فيها للشيعة مع وجود جيوب صغيرة ينتشر فيها مذهب الخوارج، وهذا التغيير يفسّر بأنه أثر مباشر لعودة السيطرة السياسية الى أيدي الامازيغ. وفي هذه الظروف فقد مذهب الخوارج مبرر وجوده كأيدولوجية لمقاومة الامازيغ للأسر العربية السنية الحاكمة.

المحور السادس من الدولة الموحّدية 1152-1235

- يمثل عصر الموحدين من منتصف القرن 12 إلى منتصف القرن 13 أوج محاولات توحيد الغرب الإسلامي كله، كان منطلقها حركة إصلاح دينية عميقة تزعمها مهدي الموحدين الشهير، ابن تومرت، وقد اعتمد على جماعة منظمة تنظيما محكما هي جماعة الموحدين ثم تطورت في شكل حركة سياسية شاملة.

المغرب العربي في القرن 12-النشاط الاقتصادي The Maghrib during the 12th century-economic activities



- إن مرحلة بجاية، عاصمة بني حماد الرائعة المزدهرة حيث كانت الأخلاق على جانب كبير من التساهل، تمثل في مسيرة ابن تومرت نحو الغرب، أوج نشاطه بوصفه أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر. وإذ أدرك المخاطر الفعلية التي تهدّده، فقد توجه إلى ملالة، في ضواحي بجاية حيث يبدو أنه قضى فترة طويلة كرسها للدرس والتأمل. وتتسم هذه المرحلة بأهمية كبيرة بحكم ما سيكون لها من تأثير فيما بعد.

- In the course of his westward march, the stop at Bidjäya (now Bougie) - the brilliant and prosperous capital of the Hammadids, where morals were particularly free - marked the high point of Ibn Tūmart's activities as a custodian of morals. Warned of the real dangers he was running, he went to Mallâla, on the outskirts of Bidjäya, where he seems to have spent a long period in study and contemplation. This stage is of great importance for its later political significance

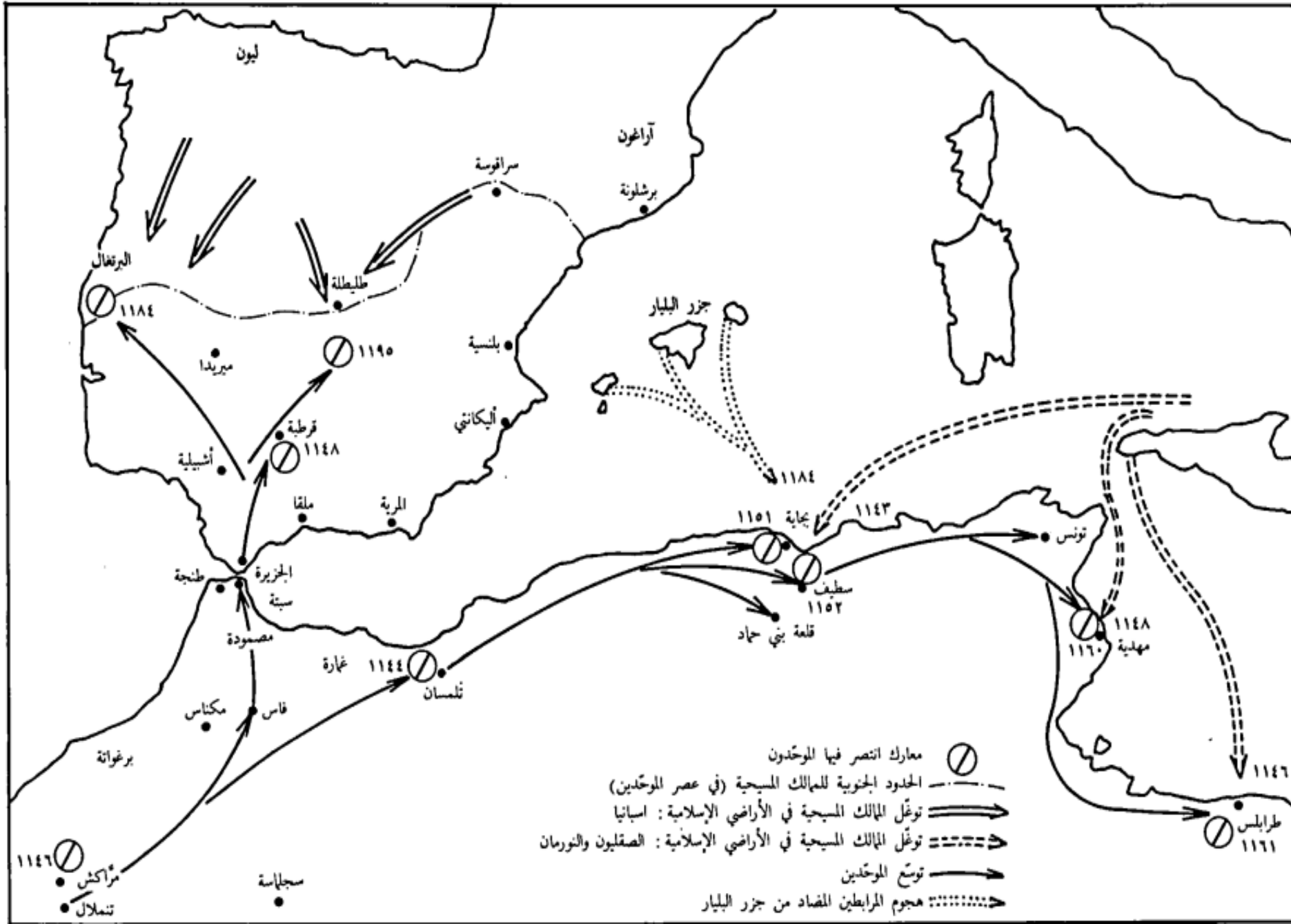
• إن المبادئ والأفكار والكيفية التي صيغت بها حركة الأمغو(أي المشعل) ابن تومرت الإصلاحية فيما يتعلق بالأخلاق والعقيدة الدينية والتشريع قد اتضحت معالمها في ذهنه شيئاً فشيئاً أثناء رحلته للدراسة في المشرق، ويتعلق المبدأ الأول بطبيعة الحال بالتوحيد(أي تقرير وحدانية الله) وهو يتمثل كما ذكر في إثبات إله واحد ونفي ما ليس إياه من آلهة وشرك. وهو يؤكد استناداً إلى أحاديث شتى أن التوحيد هو أول ما يجب معرفته، فهو ركن من أركان الدين وأعظم الفروض وهو دين الأولين والآخرين من الأنبياء. وهذا بعد الانحراف الكبير للمجتمع المغاربي عن الدين الصحيح أثناء حكم الخوارج.

• ولقد تميز الموحّدون بالتقشف والبساطة، وهما صفات استحسنتهما الأمازيغ كل الاستحسان. ومن المهم أن نلاحظ أن المهدي كان يستعمل اللغة الأمازيغية في خطبه بل حرّر بعض الكتابات بها.

توحيد المغرب العربي على يد الخلفاء الموحدين Unification of the Maghrib by the Almohad

- كوّنت حركة الموحدين تجمعا أخذت غايته السياسية تتضح شيئا فشيئا: وهي إقامة نظام حكم جديد لتطبيق إصلاحات ابن تومرت. وأدرك المرابطون ذلك تماما. أحرز الموحدون أول نصر لهم في كيك سنة 1122، وجعلوا من مراكش هدفهم، فحاصروها مدة أربعين يوما، لكن فرسان المرابطين هزموهم في معركة البحيرة سنة 1128. وفي هذه الظروف العسيرة توفي ابن تومرت سنة 1130. والمرجح أن تنظيم أمر خلافته وتولي عبد المؤمن بن علي مقاليد الأمور سنة 1133، لم يكونا دون مشاكل. ودفن ابن تومرت في تنمل، وذكر ليون الإفريقي أن ضريحه كان لا يزال موضع الإكبار بعد مضي خمسة قرون على وفاته.

الفتح الجديد للموحدين The Almohad reconquest



العمارة الموحدية في قصبة بجاية



- كانت الجزائر معرضة للتهديد المسيحي. إذ أن نفوذ السلالات الصنهاجية في القيروان وبجاية قد تقوضت نتيجة للتنظيم الإقليمي الجديد في المغرب الأوسط لصالح الإمارات الصنهاجية والعربية داخل البلاد. بينما كانت أقدام النورمان- بقيادة ملك صقلية روجر الثاني- ترسخ في أهم موانئ الجزائر. ومن ثم توافر المبرر لإرسال الموحيدين حملة إلى إفريقيا لاسيما أنه كان من الممكن الاستناد إلى واجب الجهاد.
- وبعد سنتين من الاستعدادات، توجه الخليفة الموحيدي عبد المؤمن نحو سبتة، وهو ما كان من شأنه أن يحمل على الاعتقاد أنه ينوي العبور إلى إسبانيا. لكنه تظاهر بالعودة من سبتة إلى مراكش، ثم سلك بدلا من ذلك طريق الشرق في أوائل صيف 1152م. وسار سيرا حثيثا فبلغ المغرب الأوسط، فاستولى على مدينة الجزائر أولا ثم على بجاية دون كبير عناء(كان آخر بني حماد في بجاية، قد توصلوا إلى وجه من وجوه التعايش السلمي مع بني هلال أسياذ الهضاب الجدد والى تطوير التجارة معهم). وأرسل فصيلا بقيادة ابنه عبد الله لاحتلال القلعة، عاصمة بني حماد القديمة. أما قسنطينة، فقد استسلمت، وتوجهت منها حملة على بدو منطقة قسنطينة.

• لقد أبدى الخليفة الموحي ربح ما عرف عنه من الشدة بل القسوة سماحة مذهلة تجاه العرب المهزومين الذين كسر تحالفهم. فهل كان يريد أن يبين لهم مدى قوته حتى يعظم في أعينهم ثم يشملهم بحملة حتى ينظموا إلى صفوفه؟ هذا الأمر محتمل إذا نحن قدرنا قيمة العنصر العربي في المغرب الأوسط، وحاجة الخليفة إلى توسيع قاعدة نظامه الموحدية الأمازيغية- بما يتناسب واتساع رقعة إمبراطوريته الناشئة. ولعله قد فكر أيضا في الاستعانة بالعرب باسم الجهاد في الأندلس حيث كثر الاستصراخ به أمام تهديدات المسيحيين التي أخذت خطورتها تتفاقم يوما بعد يوم. وعلى أثر هذه الأحداث، فضل الخليفة أن لا يغامر بجيوشه فيما وراء منطقة قسنطينة فترك في المغرب الأوسط ولاية وحاميات وقفل راجعا إلى المغرب الأقصى.

• ويبدو أن عبد المؤمن قد اعتمد على جيشه وعلى أسطوله أكثر مما اعتمد على سياسة توحيد حقيقية، على الرغم من توسيعه النواة الأولى للنظام المكون من الأمازيغ. وقد تمكن الموحدون -بفضل نظامهم الضرائبي وعملتهم القوية، من أن يكون لهم جيش وأسطول عظيمان.

- وتلقى الموحدون هزيمة قاسية في معركة العقاب LAS NAVAS DE TOLOSA يوم 16 جويلية 1212، والتي ما لبثت أن تحولت الى اندحار مفعج. وقد بالغ المسيحيون، بطبيعة الحال، في تقدير مدى انتصارهم ذاك، لكن مؤرخا اسبانيا هو هويسى ميرندا هو الذي أرجعها إلى أهميتها الحقيقية، حيث أنست المسيحيين ما كان بينهم من خلافات، مشيرا إلى أنها لم تتسبب في انهيار المواقع الإسلامية في اسبانيا، إلا أنها تحتفظ بقيمتها الرمزية.
- وقد كانت هذه الموقعة بالفعل أول انتصار كبير للنصارى المتحدين ضد مسلمي إسبانيا والمغرب، يقودهم الخليفة نفسه، وبهذا الوصف فقد كان لها دور عظيم، لأن الذي هزم ليس جيشا موحديا بسيطا وإنما الإمبراطورية الموحدية بقيادة خليفته.
- ان الإمبراطورية الموحدية، وان شهدت من بعد بعض السنوات الزاهرة، إلا أن معركة العقاب كانت العرض الذي لا ينكر لبداية تفكك النظام. وإنه لأمر ذو دلالة في نهاية الأمر أن الغرب الإسلامي لم يبد أي ردّ فعل بعد الهزيمة ولد يدبّ فيه الحماس، وكانت هناك سلبية وعدم اكتراث استمرت الى يومنا هذا. إذ أن الخليفة نفسه القدوة، فقد عجل بالعودة الى مراكش وعاش كئيبيًا لفترة طويلة حتى وفاته سنة 1213.

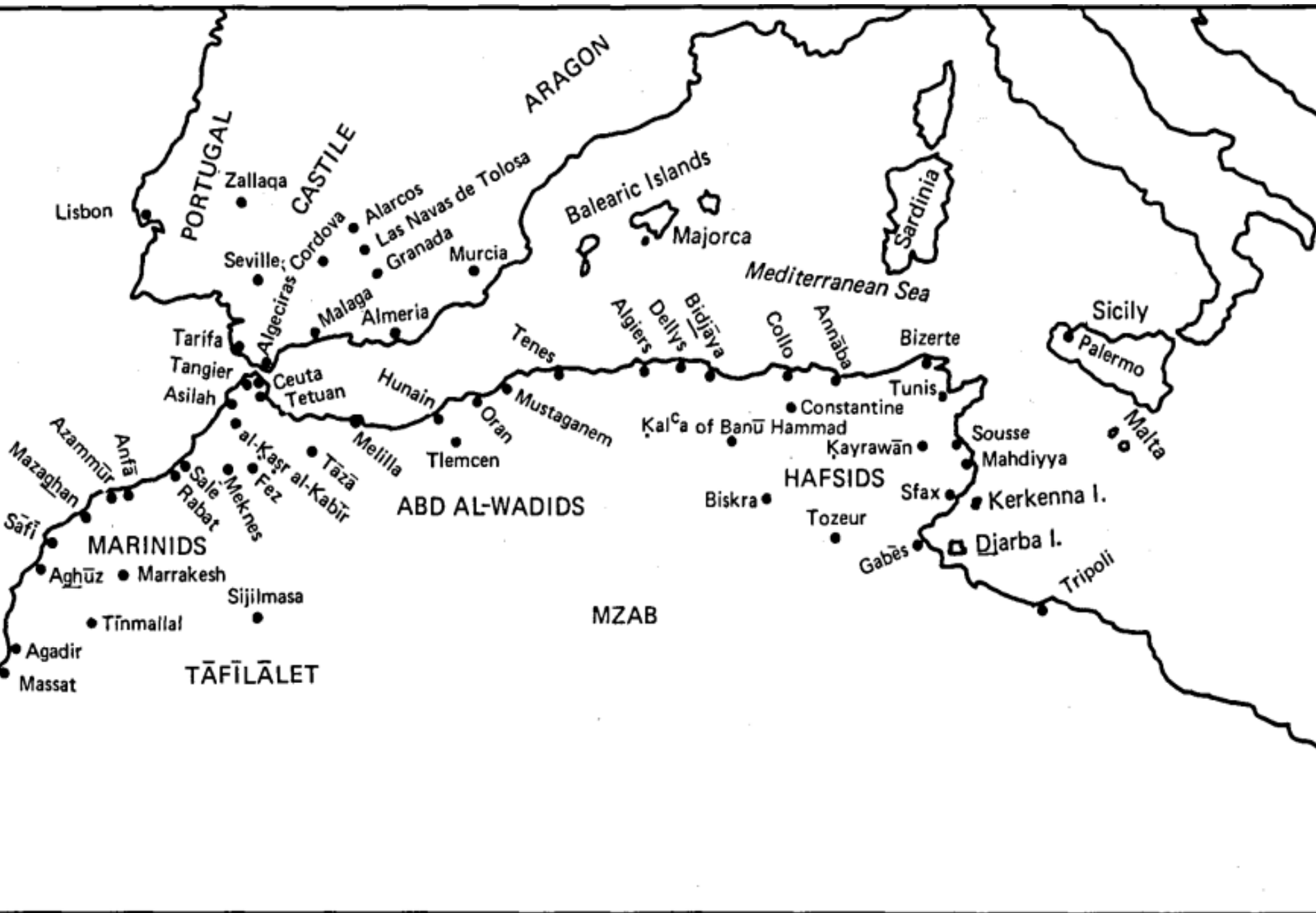
النصب التذكاري لمعركة العقاب جنوب اسبانيا



• لقد أعاد سقوط الإمبراطورية الموحدية شمال إفريقيا إلى الوضع الذي يظهر أنه كان قبل ظهور الفاطميين. فعلى أنقاض الإمبراطورية ظهرت ثلاث دول مستقلة كثيرا ما ناصبت بعضها بعضا العداء، كما هددتها في الداخل الخصومات بين الأسر الحاكمة والثورات وهددتها من الخارج هجمات العدو المسيحي المتزايدة. وهم الحفصيون في القيروان سنة 1228 وبني عبد الوديد في تلمسان سنة 1235 وبني مرين الذين استولوا على مراكش سنة 1269، وقد شهدت هذه الأقطار الثلاثة من بعد نشأة الدول التي أصبحت تعرف بأسماء تونس والجزائر والمغرب والتي تباينت سبل تطورها رغم ما تشترك فيه من خصائص.

• ثم كان انفصال اسبانيا فضياعها، فبعد نهاية حكم الموحدين حل محلهم أمراء منحدرين من السلالات القديمة ما لبثت أن أصبحت تابعة لمولك النصارى، وأخذت الحواضر الإسلامية تتساقط الواحدة تلو الأخرى (قرطبة 1236) وآخرها غرناطة 1492.

تفكيك إمبراطورية الموحدين / Dismemberment of the Almohad empire



-الدولة الحفصية 1228-1574 The Hafsids State

- أعاد سقوط الإمبراطورية الموحدية المغرب العربي إلى الوضع الذي يظهر أنه كان قبل ظهور الفاطميين. فعلى أنقاض الإمبراطورية المنهارة، ظهرت ثلاث دول مستقلة كثيرا ما ناصبت بعضها بعضا العداء، كما هددتها في الداخل الخصومات بين الأسر الحاكمة والثورات وهددتها من الخارج هجمات الممالك النصرانية المتحالفة. وقد شهدت هذه الأقطار الثلاثة من بعد نشأة الدول التي أصبحت تعرف اليوم بأسماء تونس والجزائر والمغرب والتي تباينت سبل تطورها رغم ما تشترك فيه من خصائص.
- والدول الحاكمة الثلاث التي خلفت الموحدين وتقاسمت المغرب هي:
الحفصيون (1228-1574) وعاصمتهم تونس، بنو عبد الوديد أو بنو زيان (1235-1554) وعاصمتهم تلمسان، وبنو مرين في المغرب الأقصى (1230-1472) وعاصمتهم فاس.

- ان الجدّ الذي أعطى لهذه السلالة اسمها هو أبو حفص عمر بن يحيى شيخ قبيلة هنتانة الامازيغية، وفي عام 1228 استقل الحفصيون عن الموحدين، ومنذ عام 1234 قاموا بحروب كبيرة واستولوا على التوالي على قسنطينة وبجاية والجزائر، كما اخضعوا كل ساحل طرابلس في الشرق. وأتاح استتاب السلم والأمن نموًا اقتصاديًا سريعًا، وتردّد على العاصمة، تونس، من جديد التجار الأجانب القادمون من بروفانس وقطالونيا والجمهوريات الإيطالية. وفي عام 1253 اتخذ المستنصر ابي عبد الله لقب امير المؤمنين، واعترف بخلافته أشرف مكّة في عام 1259، وفي العام التالي، اعترف به مماليك مصر. وهو دليل على التقدير الكبير الذي كان يحظى به الحفصيون في العالم الإسلامي، حيث كانت دولتهم تعتبر من أكثر الدول استقرارًا وقوة.

- وبعد بضع سنوات ارتفعت شهرة المستنصر في العالم الإسلامي بفضل إنهائه للحملة الصليبية التي قادها سان لويس ملك فرنسا على تونس عام 1270. وفي عهد المستنصر بلغت الأسرة الحفصية الذروة الأولى لنفوذها، إذ تمّ الاعتراف لها بالهيمنة على المغرب بأسره وامتدّ نفوذها حتى الاندلس غرباً والحجاز شرقاً. وكان على كل الدول الاوروبية في غربي البحر المتوسط أن تضع قوتها في الحسبان وسعت جاهدة للتحالف معها.

- واستقل ولاية قسنطينة وبجاية وبسكرة عن العاصمة تونس، لكن الخليفة الحفصي أبو العباس(1394-1434) أعاد توحيد البلاد وتنظيمها وألغى الامتيازات العقارية وتمكن من كبح النزاعات المحلية للعصيان وأعاد هيبة الأسرة المالكة.

- الا أن خلفائه أظهروا عجزهم عن وقف تيار الفوضى. وانهارت السلطة الحفصية فجأة، وشهدت نهاية القرن 15 وبداية القرن 16 الفوضى التي استنزفت طاقة الاسرة الحفصية الى درجة أنها لم تعد قادرة معها على مواجهة الوضع الخطير الناجم عن التنافس بين اسبانيا والامبراطورية العثمانية الراغبتين كلتيهما في بسط سيطرتهما على المنطقة.

-الدولة الزيانية 1235-1556 The Zayyânids State

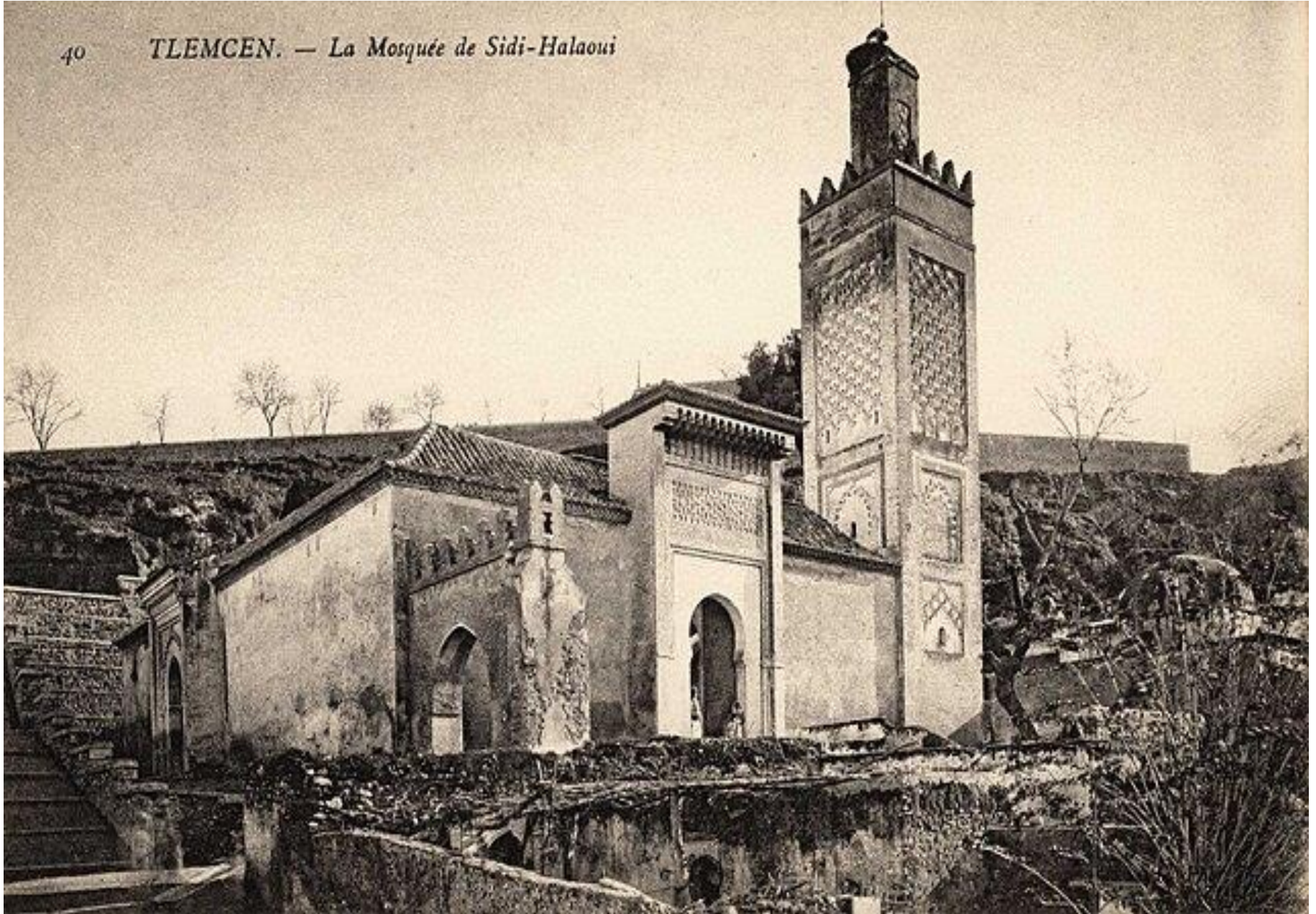
- في عام 1235، تخلص والي تلمسان الموحدّي يغمراسن بن زيان(المنحدر من قبائل زناتة الامازيغية) من حكم الموحدين. وأسس دولته الخاصة التي عمّرت أكثر من ثلاثة قرون(حتى سنة 1554م). وكان كيان هذه الدولة معرضاً منذ نشأته لتهديد جيرانها والممالك النصرانية. ويرجع طول حياتها للسياسة البارة التي انتهجها بعض الملوك الاكفاء الذين كان من أكثرهم توفيقاً يغمراسن مؤسس الدولة وأبو حمو الثاني، وكان هدفها خلال حكمها بلوغ وادي شلف وبجاية شرقاً والنفاز الى مشارف فاس غرباً. واستغل البدو العرب دائماً فترات الضعف ونفذوا في كل مرة الى وسط المملكة الامازيغية وتوصلوا الى اقتطاع بعض ولايتها. وفي الوقت نفسه تكثفت عملية تعريب الامازيغ الصنهاجيين بحيث فقدت الاقاليم الغربية للجزائر طابعها الامازيغي الأساسي كلياً.

- وكان يغمراسن تقياً وفقياً، ولم يتكلم الا الامازيغية طوال حياته، وهو من بنى المآذن للمساجد الكبرى في تلمسان وأغادير ومراكش، وينسب اليه انشاء قلعة المشوار التي جعل منها مقراً لإقامته. وأنشأ خلفه مسجد سيدي بلحسن 1292، وبنى أبو حمو مدرسة وثلاثة قصور، وشهدت تلمسان آنذاك قمة ازدهارها.

مسجد سيدي بلحسن 1292

40

TLEMCEN. — La Mosquée de Sidi-Halaoui



قلعة المشوار



- ويرجع الضعف الأساسي للمملكة الى قاعدتها الاقتصادية الضيقة الأحادية الجانب، وخاصة ضغط البدو الرحّل القادمين من الجنوب، وقد أسهم عدم الاستقرار الناتج عن ذلك اسهاما كبيرا في تضاعف الخصومات داخل المملكة. وليس غريبا في مثل هذه الظروف ان يقع بنو زيان، لفترات، تحت وصاية المرينيين والحفصيين ثم أراغون. وقد ظل عمادها الأساسي مدينة تلمسان التي صارت أهم مستودع للتجارة في المغرب الأوسط بعد تهرت، واجتذبت التجار الأوروبيين وتجار المغرب والمشرق الإسلامي، وكان يقطنها يومئذ نحو 40 ألف نسمة. والمثل السائر في تلمسان حتى يومنا هذا هو خير دواء للفقر هو السودان، يشير الى الثروات التي اكتسبتها المدينة من التجارة عبر الصحراء.
- ولئن عرفت مملكة تلمسان خلال النصف الثاني من القرن 14 فترة ازدهار ورخاء في عهد السلطان القدير أبو حمّو الثاني (1359-1389)، فان السلاطين المرينيين قد احتلوها مرتين وهددتها غارات الأعراب وثوراتهم. وتلك هي الفترة التي أقام فيها ابن خلدون في تلمسان وتوسّط لأبي حمو لدى شيوخ البدو مما يسّر له فهم نظام وآلية الحياة السياسية وانقلاب التحالفات، كما ترك وصفا للثقافة الزيانية (لقد ازدهرت العلوم والفنون هنا بتلمسان وأنجبت هذه المدينة العلماء والرجال الافذاذ الذين وصل علمهم الى الكثير من مدن العالم)، وازدهرت المدينة بعمائر كثيرة بقيت الى يومنا هذا وجعلت من تلمسان اهم العمارة الإسلامية في الغرب الإسلامي. وخلال القرنين 15 و 16 دخلت تلمسان في حقبة طويلة من الانحلال ولم تعد إلا مجرد أداة في المعركة الكبرى بين اسبانيا والامبراطورية العثمانية، وانهارت أخيرا تحت ضربات الهجوم العثماني سنة 1554.

- عرفت الجزائر خلال عصر الدول الإسلامية تحولات عميقة، كانت فيها دولة قائمة بذاتها أحياناً، وجزء من دول كبرى أحيانا أخرى، ورغم الصراعات السياسية والعسكرية، فقد تميزت بإسهامات حضارية كبرى في مجالات الفكر والعلم والعمران